

المجلد: 08 / العدد 01 جوان (2024)، ص.ص. 487-495

مقاربة في رهانات الأدب المقارن في الجزائر وإشكالياته

An Approach to the Stakes and Issues of Comparative Literature in Algeria

هشايي فتيحة

fatiha.hachemaoui@univ-mosta.dz

جامعة عبد الحميد بن باديس (مستغانم)
(الجزائر)

غربي رشيد*

gharsirachid86@gmail.com

جامعة عبد الحميد بن باديس (مستغانم)
(الجزائر)

تاريخ النشر: 2025/12/02

تاريخ القبول: 2025/09/27

تاريخ الاستلام: 2025/07/04

ملخص :

في الجزائر، يواجه الأدب المقارن تحديات كبيرة على الرغم من أهميته في فهم التنوع الثقافي وتعزيز الحوار بين الشعوب. نشأ هذا المجال في أوروبا بالقرن التاسع عشر، وتحديداً في فرنسا، لكن ظهوره في الجزائر تأخر بسبب الاستعمار الفرنسي. بدأ الاهتمام به جدّاً بعد الاستقلال في الستينيات، بجهود رواد مثل محمد بن أي شنب وابنه سعد الدين، بالإضافة إلى أبو العيد دودو. ومع ذلك، لا يزال الأدب المقارن في الجزائر يعاني من مشكلات منهجية، مثل الاعتماد على المناهج الفرنسية التقليدية، وضعف الكفاءة في اللغات الأجنبية، ونقص المراجع العربية المتخصصة. للتغلب على هذه التحديات، هناك حاجة ماسة إلى تجديد المناهج البحثية وتعزيز التعاون الأكاديمي لدمج الأدب المقارن الجزائري في المشهد الثقافي العالمي.

كلمات مفتاحية: الأدب المقارن، الجزاء، التأثير والتأثر، التحديات المنهجية، اللغة والهوية.

Abstract:

Comparative literature in Algeria faces significant hurdles, largely due to its delayed emergence after French colonialism. Though pioneers began establishing the field post-1960s independence, it still struggles with reliance on outdated French methodologies, limited foreign language proficiency, and a scarcity of specialized Arabic resources. Overcoming these issues requires updating research approaches and boosting academic collaboration to integrate Algerian comparative literature globally.

Keywords: Comparative Literature. Algeria. Influence and Reception. Methodological Challenges . Language and Identity

مقدمة:

يُعَدُّ موضوع الأدب المقارن من المجالات الحيوية والمحورية في المقاربات الأدبية والثقافية، إذ تكمن أهميته في تقديم فهم عميق وشامل للآداب في مختلف الأقطار والأمصار، فهو يسعى للبحث في خصائص المشترك الإنساني بين الآداب المختلفة، محذراً الشعوب من التعصب القومي، ويضع آدابها ضمن الآداب العالمية والقومية، كما يساهم في توسيع الآفاق للفهم التقدي، ويشغل على تطوير النظريات الأدبية أكثر شمولاً، ويبحث في الصلات التاريخية والتأثيرات المتبادلة بين الآداب وحقول المعرفة الأخرى.

يعتبر الأدب المقارن وسيلة فعالة لتقوية فهمنا للتنوع الثقافي، فهو يمنح لنا فرصة للكشف عن الفروق الدقيقة بين التصوص من مختلف الثقافات، مما يثري منظورنا، على المستوى الشخصي، يقوي دراسة الأدب المقارن إتقان اللغات الأجنبية، وبني مهارات التفكير التقدي والتحليلي، كما يمنح الباعثين فرصة فريدة لتقييم أدبهم القومي ومعالجة أي جوانب قصور فيه، في سياق أوسع، يساهم الأدب المقارن بشكل فعال في تحقيق التقارب والتفاهم بين الشعوب، ويساعد الآداب القومية على الخروج من عزلتها لتصبح جزءاً لا يتجزأ من التراث الأدبي العالمي، باختصار، الأدب المقارن هو جسر ثقافي حيوي يربط بين الشعوب والحضارات، ويساهم في بناء فهم أعمق للإنسانية جمعاء.

ومن هنا نجد رهانات الأدب المقارن في الجزائر تتعدد، وإشكالياته تتنوع، مما يثير تساؤلات عدة: ما هي التواة الأولى لنشأة هذا الأدب؟ وكيف تأسس في الجزائر؟ وما هي المناهج المتبعة في تدريسه؟ وما التحديات والمعوقات التي تواجه الدراسات الأدبية المقارنة في الجزائر؟ وما هو مستقبل الأدب المقارن في هذا السياق؟

أولاً: التواة الأولى لنشوء الأدب المقارن

يعتبر القرن التاسع عشر القرن الذي لاح فيه الأدب المقارن إلى الأفق، إذ ظهر هذا النوع من الأدب من مخاض الدراسات الأدبية التاريخية، وقد كان هذا المخاض ناجماً عن تغيير في فكرة الجمال المطلق التي ذاع صيتها في القرن الثامن عشر، وقد فتحت الدراسات التي ظهرت في العالم الأوروبي وخاصة فرنسا السبيل للأدب المقارن لكي يتقدم تقدماً ملحوظاً ليختص بأسسه وقواعده التي تفصله عن غيره من الآداب، ولعل الأدب المقارن قد ولد من رحم الموازنات التي عرفت الآداب الأوروبية من بعيد الأمد "فكانت مدرسة سقراط (436-338 ق.م) السياسي والخطيب وأستاذ أفلاطون تؤيد فكرة أن يجتذ الشاعر بالتأذج الرفيعة" فقد كان سقراط مشهوراً بمنهجه الجدلي في البحث عن الحقيقة، وتركيزه على الأخلاق وخص الذات، ومع ذلك، يبرز من خلال هاته المدرسة بعداً آخر لأفكاره أو لأفكار مدرسته، وهو ارتباطها بمفهوم الاحتذاء بالتأذج الرفيعة في مجال الشعر.

وكان من الكتابات التي ظهرت في العالم الأوروبي ما عرف في الدراسات التقدية والأدبية بالزومانية التي اعتبرت أحد العوامل الرئيسة في ظهور هذا الأدب، حيث كانت أسسها تقوم على تقويض فكرة الجمال المطلق، الفكرة التي كانت أحد أسباب تأخر ظهور الأدب المقارن علماً مستقلاً، فلم تعد "الطبقات العليا والمتوسطة التي حددها الأدب الكلاسيكي هي وحدها التي تلمس عندها الحقيقة، وإنما أصبح البسطاء والزعاة والفلاحون والصناع لهم أيضاً جانب من الحقيقة يمكن أن يلمس عندهم، وهي حقائق متعددة تعدد الأجيال، فلم تعد الحقيقة مقصورة على ما قاله (القدماء) وحدهم، بل إن (المعاصرين) أيضاً ينبغي أن يلمس عندهم جانب منها، وتلك الحقائق متعددة بتعدد الشعوب، فليست مقصورة على الفكر الإغريقي واللاتيني، أو على أدب أبناء (الجنوب) ولكن يوجد منها قسطاً في كلّ شعب وكلّ مناخ وكلّ لغة"² فقد أصبح بالإمكان دراسة أوجه التشابه والاختلاف بين الآداب المختلفة، ليس فقط من منظور ضيق، بل من منظور واسع وشامل يدرك تعدد الحقائق وتنوع مصادرها.

يقرر ماريوس فرانسوا جويار أنّ الأدب المقارن نشأ بشكل أساسي نتيجة الوعي الكوزموبوليتاني الأدبي، ويوضح أن هذا التطور حدث بالتوازي مع الحركة الرومانسية، حيث كان رواد الكوزموبوليتانية* البارزون مثل فيللمان وأمبير وكيهيه من أوائل ممارسي الأدب المقارن³، وجنباً إلى جنب مع الزومانيقية، نجد أنّ كبار الكوزموبوليتانيين الكبار مثل فيللمان وأمبير وكيهيه هم كذلك أوائل المقارنين، "لكنهم في الواقع قابلوا وزاوجوا معلومات من مختلف الآداب أكثر مما كتبوا تاريخها المقارن"⁴.

حاولت آن لويز جرمين دي ستايل-هولستين Anne Louise Germaine de Staël-Holstein (1766-1817) عبر كتابها (عن ألمانيا De l'Allemagne) وبفضل اتصالها بالأدب الفرنسي والألماني "أن تؤكد على أهمية استفادة كلّ شعب من أفكار الشعوب الأخرى"⁵ ففي كتابها هذا، واجهت مدام دي ستايل معركة فكرية شرسة، إذ حظرت حكومة نابليون وصادرتها، فقد اعتبره نابليون كتاباً مثيراً للجدل ومحرضاً ضد النظام العسكري الفرنسي، وذلك لأنه كان يرى النساء مجرد "آلات تفريخ للأطفال" ويتظاهر بالاحتقار للمثقفين والفنانين. لذا، كان ينظر إلى السيدة دي ستايل، التي جمعت بين الثقافة والفن.

كما كان لتأثير الناقد الفرنسي سانت بوف بنظرية التطور لتشارلز داروين وبالعلوم التجريبية بشكل عام دور هام في توجهه النقدي، الأمر دفعه إلى تطبيق هذه المبادئ على النقد الأدبي، ففي عمله "أحاديث الاثنين الجديدة"، نجده يناقش فكرة وجود تشابه بين التقسيم العائلي لفصائل الإنسان والتقسيم العائلي لفصائل الأدب، هذا يعني أنه رأى إمكانية تصنيف الأعمال الأدبية وأنواعها ضمن "عائلات" أو "فصائل" بناءً على سمات مشتركة وتطورها عبر الزمن، على غرار تصنيف الكائنات الحية، وهذا ما جعله يقول "سوف يأتي يوم سيكون فيه العلم (الأدبي النقدي) قد تشكل، وتكون النفوس البشرية قد قُسمت إلى عائلات كبرى، وتحددت خصائص كل عائلة وعرفت، وعندما تتحدد الملامح الرئيسة لنفس بشرية ما، فإن كثيراً غيرها - من يشترك معها في هذه الملامح - يمكن أن يلحق بها"⁶ فنجد في كلامه نظرة عميقة حول مستقبل العلم الأدبي النقدي وتأثيره على فهم النفس البشرية.

كما سعى المؤرخ هيبوليت تين (1828-1893) إلى تأريخ الأدب بموضوعية، مُقترحاً أنّ الظواهر الأدبية يمكن تفسيرها من خلال علاقتها بظواهر كونية وخصائص بشرية أساسية، حيث اشتغل تين على ثلاثة عوامل رئيسية: الجنس، والبيئة، والعصر، فمن خلال هذه العوامل، حاول تين تقديم فهم شامل لكيفية تشكيل هذه العناصر للأعمال الأدبية، وهنا تكمن الإشكالية عند تين فالسؤال بالنسبة لتين هو: "ما هي الحالة المعنوية التي تقف خلف إنتاج أدب أو فلسفة أو طبقة معينة من الفن؟ وما هي الظروف المتصلة بالجنس والعصر والبيئة، التي يمكن أن تعين على نحو خاص على إيجاد هذه الحالة المعنوية؟. ولعل تين لا يختلّف في أفكاره وآرائه عن مدام دي ستايل وسانت بوف كثيراً؛ إذ أنه يرى الإنتاج الأدبي مركباً كلياً يمكن أن يكون عن طريق منهج جيّد⁷.

إذن فقد شهد القرن التاسع عشر، وتحديدًا عام 1828، لحظة محورية في تاريخ الدراسات الأدبية مع ولادة علم الأدب المقارن، فقد كان الفضل في هذه الولادة المبكرة يعود إلى جون جاك أمبير، الذي يُعتبر أحد رواد هذا المجال، حيث كانت محاضراته رائدة في جامعتي مرسيليا وباريس تحت عنوان "الأدب المقارن"، مما شكل التواة الأولى لهذا التخصص الجديد، فلم يقتصر دوره على مجرد التسمية، بل وضع الأسس الأولى لمنهجية مقارنة الآداب المختلفة، فاتحاً بذلك آفاقاً جديدة للبحث والتحليل.

وعلى الرغم من أهمية مساهمة أمبير، إلا أنّ التطور الحقيقي والتأسيس المنهجي للأدب المقارن يُنسب بشكل كبير إلى جهود باحثين آخرين جاءوا من بعده، وفي هذا الصدد، يُعدّ بول فان تيجم بمثابة المؤسس والزائد الأول للأدب المقارن، تميز تيجم بدراساته العميقة والمفصلة، والتي لم يسبقه إليها أحد بهذا القدر من الدقة والشمولية، فكتابه يعد

مرجعاً أساسياً في هذا المجال، حيث وضع فيه منهجية واضحة ومفصلة لدراسة العلاقات والتأثيرات المتبادلة بين الآداب المختلفة، متجاوزاً بذلك مجرد المقارنات السطحية إلى تحليل أعمق للجذور الثقافية والتاريخية المشتركة. لم يكتمل هذا البناء إلا بمساهمة جان ماريه كاريه، الذي كان له دور بالغ الأهمية في ترسيخ قواعد الأدب المقارن وتطوره. عمل كاريه على تعزيز المنهجية التي أسسها تيجم، وأضاف إليها أبعاداً جديدة، مما أسهم في توسيع نطاق البحث في الأدب المقارن وجعله أكثر شمولاً وتنوعاً. يمكن القول فهؤلاء الرواد الثلاثة: أمبير، تيجم، وكاريه، قد شكلوا معاً الركائز الأساسية التي قام عليها صرح الأدب المقارن، ومهدوا الطريق أمام أجيال من الباحثين لاستكشاف الروابط المعقدة بين الآداب العالمية وتأثيراتها المتبادلة⁸.

ثانياً: تأسيس الأدب المقارن في الجزائر

لم يكن للأدب المقارن في الجزائر ذلك الاهتمام الذي حظي به فيه غيره من الدول العربية والغربية، كما لم يظهر هذا النوع من الأدب بشكل رسمي إلا في العقود الأخيرة، ذلك بسبب اعتبارات كثيرة، أهمها العامل الكولونيالي وما خلفه من آثار في شتى المجالات، ويمكن تصنيف مرحلة التأسيس إلى الأدب المقارن إلى مرحلتين هامتين، هما مرحلة ما قبل الاستقلال ومرحلة ما بعده.

من المتعارف عليه في تاريخ الجزائر أنها كانت تحت وطأة الاستخرا ب الفرنسي حوالي 130 سنة، مما جعل الأدب والتقد يعيشان فترة حرجة من تاريخه، ومن هنا لم تكن الظروف مواتية في الجزائر "تتوفر على مقومات نشأة الأدب المقارن، فهي لم تكن حرة في تنظيم شؤونها بسبب الاستعمار الذي كان يعمل جاهداً على إخماد أفساسها وإلغاء وجودها، بما في ذلك الوجود اللغوي والأدبي والمعرفي"⁹ ومن هنا كان العامل الكولونيالي وتبعاته من أكبر العوامل التي أخرت ظهور هذا الأدب في الجزائر.

لكن مع بدايات القرن العشرين كانت هناك بعض الملامح لهذا الأدب في الجزائر، فنجد أن ظهور الأدب المقارن في فرنسا كانت تصل أصدواؤها لبلدنا، وذلك بواسطة "الصحافة والإعلام وافتتاح الشوق الجزائرية أمام الكتاب الفرنسي، ثم بوساطة نشاطات قسم اللغة الفرنسية في جامعة الجزائر، وافتتاحه على الدراسات الأدبية الكلاسيكية المقارنة"¹⁰ أي أن لتأسيس جامعة الجزائر سنة 1904 كان له دور هام في بزوغ نجم بعض الأساء الجزائرية التي يمكن اعتبار بعض كتاباتها في خانة الآداب المقارنة رغم صعوبة هذا التصنيف.

لقد بدأت في الفترة التي أعقبت تأسيس الجامعة في الجزائر ظهور بعض المبادرات الفردية التي يمكن اعتبارها تمهيداً للأدب المقارن، فكان من رجالها كل من :

- **محمد بن أبي شنب:** يُعدّ من الرواد الأوائل الذين أظهروا اهتماماً بالدراسات المقارنة، وذلك من خلال إتقانه لعدة لغات وإسهاماته في الدراسات الأدبية واللغوية، رغم أن منهجه لم يكن بالضرورة "مقارناً" بالمعنى الأكاديمي المتعارف عليه لاحقاً في الجامعة الجزائرية، التي تأسست عام 1904، شهدت تدريس الأدب المقارن باللغة الفرنسية في بدايات القرن العشرين، إذ يمثل هذا الناقد حلقة رابطة بين النموذج التقليدي في التعليم العربي، وبين النموذج التعليمي الفرنسي المدني، فقد كان ملماً بالتراث العربي لغة وأدبا وفقها، ومنفتحا على لغات وآداب أخرى¹¹.

- **سعد الدين بن أبي شنب:** هو ابن محمد بن أبي شنب، حيث كان له هو الآخر إلمام باللغات الأجنبية على غرار اللغات الإغريقية واللاتينية، كما كان له "إهتمامات معرفية تنحو منحى إنسانوياً مقارنياً حيث نشر في مجلات فرنسية مقالات ودراسات أدبية تدرج ضمن مجال العلاقات الأدبية المتبادلة والمصادر والتأثير والتأثر"¹²، بالإضافة إلى ذلك فإننا نجد عندما نقرأ سيرة الرجل وسيرته العلمية والعملية أنه قد اهتم خلال توليه عمادة كلية الآداب في جامعة الجزائر بالأدب المقارن فكان أحد مؤسسي كرسي الأدب المقارن في جامعة الجزائر سنة 1963م، وجمعية الأدب المقارن الجزائرية سنة 1964م، ومجلة الأدب المقارن الجزائرية (1964-1968).

لكنّ بالرغم من ذلك حسب ما يقول عبد المجيد حنون في كتابه "الأدب المقارن في الجزائر" "ورغم جهوده واهتماماته إلا أنّ قدراته المعرفية في اللغة العربية كانت محدودة جدًّا، ولم يكن يتمتع بمستوى علمي يمكنه من التكوين في الأدب المقارن، وبالتالي بقي جهده في الأدب المقارن محدودًا لا يتعدى التقل من النظام التعليمي الفرنسي إلى النظام التعليمي الجزائري بعد الاستقلال الذي كان في واقع الأمر مجرد امتداد للنظام الفرنسي"¹³ ويكفي سعد الدين بن أبي شنب شرقًا وفضلًا أنّه كان من الأوائل الذين كرسوا مكانة الأدب المقارن في الجامعة الجزائرية بشكل عام. ومن هنا يمكننا القول أنّ حركة الأدب المقارن في الجزائر كانت محدودة إن لم نقل منعدمة فيما عدا ما ورد من دراسات ومقالات ظهرت في جامعة الجزائر وأساتذتها.

وبعد أن انسحبت فرنسا من الجزائر تجرّ أذيل الهزيمة، خلفت وراءها حملاً ثقيلاً على السلطات الجزائرية التي تولت تسيير البلاد بعد الاستقلال، فكل المجالات مستها الخراب والدمار، سواء كان ذلك سياسيًا أو ثقافيًا أو علميًا وحتى اجتماعيًا، وهذا ما جعل الجزائريين في مكان لا يحسدون عليه، وفي هذا الوضع المتأزم كان لابد أن يظهر رجال يقودون البلاد والمؤسسات إلى برّ الأمان، وبما في ذلك قطاع التربية والتعليم، وأمام هذا الوضع تولت "مجموعة قليلة جدًا من الأساتذة الجزائريين الشبان بمساعدة مجموعة قليلة أيضًا من الفرنسيين الذين لم يغادروا الجزائر تأسيس كرسي الأدب المقارن سنة 1963 في جامعة الجزائر، والوحيدة وقتذاك، وفي السنة الموالية (15 نوفمبر 1964م) أُعلن في كلية الآداب عن تأسيس (الجمعية الجزائرية للأدب المقارن)"¹⁴، وكانت متاحة لكل من يهتم بشؤون الأدب المقارن وإشكالاته.

وكان ثمن حمل لواء الأدب المقارن ثلّة من الشباب نذكر منهم: جمال الدين بن الشيخ، سعد الدين بن أبي شنب، ومحمد الصغير بثناني، وعلي لكحل، وراجح بن عامر، وأحمد حباط، وعبد الله شريط، وغيرهم ممن كان متواجدا في الجامعة آنذاك، بالإضافة إلى بعض الأساتذة الفرنسيين الذي فضلوا البقاء في الجزائر.

في عام 1967، قامت الجمعية السابقة الذكر بتأسيس مجلة ناطقة باللغة الفرنسية لاعتبارات استمولوجية وموضوعية، حيث كانت متخصصة في الدراسات المقارنة بالجزائر، والتي حملت اسم "دفاتر جزائرية للأدب المقارن"

"Cahiers Algériens de littérature comparée"

وقد صدرت هذه المجلة سنويًا لمدة ثلاث سنوات متتالية (1966، 1967، 1968)، وتضمنت أعدادها دراسات تطبيقية تحت إشراف الرابطة الدولية للأدب المقارن¹⁵.

وفي فترة السبعينيات والثمانينيات شهد الأدب والنقد بصفة عامة تطورًا واضحًا وبدأت ملامحه تلوح للأفق، خاصة مع استقرار البلاد وأمنها، بفضل هذا الاستقرار أصبح الكثير من الجزائريين من طلبة وباحثين ممن كانوا خارج الوطن يعودون إلى مسقط رأسهم، حاملين معهم ما تعلموه خارج البلاد، فتكوينهم العالي سمح لهم بالبروز في الساحة الأدبية والتقنية، وكان هذا حال الأدب المقارن إذ برزت في هذا المجال أسماء كثيرة أسهمت في بناء صورة له، وترسيخ هذا التخصص في الجزائر.

من أبرز رواد هاته الفترة نجد أبو العيد دودو الذي تخلّى عن رغد العيش وعن الظروف العلمية المتوفرة وعن الحياة التي يتمناها جل الجزائريين آنذاك وعاد إلى أحضان وطنه ليكمل مسيرة بدأها محمد بن أبي شنب ونجله سعد واستلام مشعل الأدب المقارن في الجزائر، فقد التحق بجامعة الجزائر سنة 1969م، فكان للجامعة "نعمة علمية، فهو متحصّل على أعلى درجة علمية ويتقن اللغة العربية إتقانًا تامًا، وله معرفة واسعة بأدائها وثقافتها وتاريخها، ويتقن اللغة الألمانية، وله إلمام بلغات أجنبية أخرى، وله اطلاع واسع على الأدب العالمي"¹⁶ فهذه الإمكانيات العلمية والمكتسبات الثقافية مكنته من التكفل بتدريس الأدب المقارن في الجامعة وما يتعلّق به من مقاييس كالاستشراق والآداب الأجنبية ونظريات الأدب.

ثالثاً: مستقبل الأدب المقارن في الجزائر وتحدياته

لقد سبق وأن أشرنا إلى أنّ تدريس الأدب المقارن في الجزائر بدأ في الثلث الأول من القرن العشرين، وكان مدرسو هذا الأدب في البداية ينتهجون "منهج أساتذة الأدب المقارن الفرنسيين في الجامعات الفرنسية، ويقتدون بهم شكلاً ومضموناً"¹⁷ وكان هذا بفعل تأثير الأساتذة الفرنسيين، ومن يحملون ثقافتهم ولغتهم، فما كان من الشباب الذين التحقوا بالجامعة حديثاً إلا أن يذعنوا ويسيروا في هذا التّرب، فلم يكن بيدهم حيلة ولا قدرة على تغيير الأمر الواقع. وكما كانت اللغة الفرنسية هي التّاطق الرسمي للأدب المقارن لحيثيات تاريخية وإستراتيجية إبان الاستعمار وغداة الاستقلال، أصبحت ضرورة تعريب الآداب والعلوم حاجة ملحة في الجامعة الجزائرية للتخلص من مخلفات الاستعمار الفرنسي بما في ذلك لغته، ففي سنة 1967 بدأ قسم اللغة العربية بجامعة الجزائر "ينسلخ من الطابع الاستشراقي الذي كان مفروضاً عليه اقتداءً بالجامعة الفرنسية، وبدأت المقررات الدراسية تقدّم فيه باللغة العربية، وتغيّرت طبيعة التدريس فيه، ولم تعدّ اللغة العربية تعامل فيه -على الأقل- معاملة أجنبية، الأمر الذي جعل الكثير من الأوضاع المعرفية والقانونية تشرع في التّغير"¹⁸ رغم بداية انتشار الجامعات في فترة الزّاحل هوارى بومدين على ربوع الوطن ومعه انتشر تدريس هذا التّوع من الأدب، إلا أنّه اتسم بالمدروسة والشككية، ويقتصر على ما ورد إلينا من المناهج الفرنسية في هذا الباب وما خطّه أساتذته هناك.

ومع بزوغ سنوات الثّمانينيات وخاصة بعد عودة الطّلبة الجزائريين الذي كانوا في المشرق العربي، أو أولئك الذين كانوا في الدّول العربية على غرار فرنسا وبريطانيا، نجد أنّ دخولهم القاعات الجامعية كان له أثره البارز في ترسيخ هذا الأدب في البرامج الجامعية ومقرّرتها¹⁹، وكان من أشهر العائدين الزّير دراقي، لخضر بن عبد الله، الطّيب بودريالة، عزّ الدين المناصرة، وعبد المجيد حنون.

وبعد أن انتشر الأدب المقارن في الأقسام الجامعية على مستوى الوطن استطاعت الجامعة في عناية من تنظيم أوّل ملتقى سنة 1983م، وهو أوّل ملتقى دولي في الأدب المقارن حول موضوع "الأدب المقارن عند العرب" من 14 ماي 19 ماي، التقى فيه مجموعة كبيرة من المفكرين العرب المهتمين بالشأن المقارن، من أمثال حسام الخطيب، وريمون طحّان، وخالد الكركي، وعزّ الدين المناصرة، ومحمود صبح، وبدر الدين قاسم الرّفاعي، حيث قدّمت في هذا الملتقى العديد من المحاضرات إذ تجاوزت العشرين محاضرة²⁰.

رابعاً: المناهج المتبعة في تدريس الأدب المقارن في الجزائر

من المتفق عليه في الدّراسات الأدبية والتّقديّة في الجزائر أنّ مسيرة الأدب المقارن في الجزائر ارتبطت بالجامعة الجزائرية وحركيتها، وعلى هذا الأساس أصبحت الدّراسات في الأدب المقارن تتبع مناهج مختلفة في تدريسها، إلا أنّ المنهج الفرنسي - التاريخي - كان له الحظّ الأوفر، على غرار معظم الجامعات العربية، إلا أنّ هناك انفتاحاً على مدارس أخرى، مثل المدرسة الأمريكية والسلافية، التي تسعى لتجاوز قصور المناهج التقليدية والتركيز على مقارنة الآداب المختلفة دون الاقتصار على آداب شعوب معينة، إذ "اختلفت انشغالات المقارنين الجزائريين العلمية -مؤلفات أو مترجمات أو مقالات علمية أو نشاطات بحث أو رسائل جامعية- من جامعة إلى أخرى ومن شخص إلى آخر، بسبب المرجعيات التكوينية واللّسانية أساساً والإيديولوجية أحياناً لكل واحد منهم"²¹ وعليه فقد تحكّمت التوجّهات الفكرية والإستراتيجية في اختلاف مناهج المقارنين الجزائريين وهذا ما تجلّى في كتاباتهم وأعمالهم.

خامساً: التّحديات والعوقات التي تواجه الدّراسات الأدبية المقارنة في الجزائر

- على المستوى المنهجي:

يتسم الأدب المقارن في الجزائر بتحديات منهجية ومفاهيمية ملحوظة، أبرزها نقص الدراسات الشاملة والعميقة التي تتجاوز النظرية نحو التطبيق المنهجي، كما يواجه هذا المجال إشكالية تعدد المصطلحات واضطرابها، مما يخلق لبساً لدى الباحثين والدارسين، وتزداد هذه الصعوبة مع تحديد مواطن التأثير بدقة في الأعمال الأدبية، حيث يمكن أن يختلط التأثير بالأفكار بالتمثيل أو إعادة الخلق، ويبقى الأدب المقارن يفتقد "إلى منهج علمي مستقل بذاته لأسباب كثيرة منها العامة (...) كثافة انتشار اللغات الأجنبية، وصعوبة تداول النصوص الأدبية لأسباب تقنية معروفة... إلخ، ومنها الخاصة وتمثل أساساً في ارتباط الأدب العربي بالدين الإسلامي وقيمه وأهدافه، الأمر الذي جعل المقارنة الأدبية لا تحفل كثيراً بالآخر"²² ويضاف إلى ذلك، التمسك بالمدرسة الفرنسية التقليدية التي تركز على مفهومي "التأثير والتأثر"، مما قد يحّد من آفاق البحث ويغفل عن المناهج الحديثة الأكثر شمولاً كالمدرسة الأمريكية.

- على المستوى اللغوي :

يواجه الباحثون في الأدب المقارن بالجزائر تحديات جمة تتعلق بالوصول إلى المراجع والمصادر المتخصصة والاستفادة منها، فضعف الكفاءة في اللغات الأجنبية، خاصة الأوروبية منها، يشكل عائقاً كبيراً يحول دون تمكنهم من الإلمام بالمصادر الأساسية، وهذا إلى جانب النقص الملحوظ في المراجع والكتب المتخصصة باللغة العربية في هذا المجال، مما يحّد من خيارات الباحثين ويثقل كاهلهم في البحث عن معلومات موثوقة، وحتى عند توفر المصادر الأجنبية، يواجه الباحثون صعوبة في فهمها واستيعابها بشكل كامل، ف"لا يمكن دراسة الأدب المقارن بدون مجموعة من الترجمات تشمل عدد لا يحصى من اللغات"²³ ما يستدعي معالجة شاملة لهذه العقبات لتعزيز البحث العلمي في الأدب المقارن.

- على المستوى الأكاديمي المؤسسي

رغم الاعتراف الذي حظي به الأدب المقارن في الجامعات الجزائرية، إلا أنه لا يزال يعاني من إشكاليات كثيرة، أهمها اقتصار وجود هذا التخصص على الدراسات العليا في البلاد على غرار الدكتوراه، وبعض المقاييس المتواجدة في سنوات الليسانس والماستر، ف"مشاريع التكوين في الدراسات العليا وعلى رأسها مدرسة الدكتوراه في الأدب العام والمقارن في الأدب العام والمقارن في جامعة باجي مختار - عنابة، وبالتالي فإنّ تعداد المختصين في الأدب المقارن في تزايد سريع، قد يوفّر أستاذين على الأقل في كلّ قسم من أقسام اللغة العربية على مستوى الوطن كله"²⁴ وهذا يتطلب تضافر جهود الباحثين وتنسيقاً فعالاً بين مختلف جوانبه لتجاوز الفجوات المعرفية، كما يواجه الباحثون غالباً ضيق الوقت وكثرة المسؤوليات الأكاديمية والشخصية، مما يؤثر سلباً على جودة الأبحاث وعمقها.

يتزايد الحديث عن ضرورة تجديد فضاء النقد والأدب المقارن في الجزائر، وذلك من خلال تبني مناهج وأفكار جديدة تتجاوز الأطر التقليدية السائدة، ويُشدد على أهمية ألا يقع الباحثون الجزائريون في فخ التقليد الأعمى للمناهج الغربية، ف"الأنماط التكوينية المتخصصة لأولئك الطلبة ستنتج أستاذة باحثين في الأدب المقارن يختلفون - من حيث تكوينهم وتفتحهم لسائياً ومعرفياً وتقنياً عن أسلافهم، الأمر الذي سيمكنهم من التفاعل مع الظاهرة الأدبية الجديدة تفاعلاً مقارنياً يتماشى والواقع المعرفي الجديد للدرس الأدبي المقارن"²⁵، لذلك يجب على المعنيين بالبحث في هذا الباب من مسؤولين وباحثين الاشتغال على تطوير المقاربات البحثية بصورة أصيلة تتناسب مع خصوصية السياق الثقافي والأدبي الجزائري والعربي، لتجاوز هذه التحديات، هناك حاجة ماسة إلى دعم مؤسسي وأكاديمي أكبر، وتوفير المراجع المتخصصة، وتشجيع تعليم اللغات الأجنبية للباحثين وتحفيزهم عليها، بالإضافة إلى العمل على تطوير مناهج بحثية تتناسب مع طبيعة الأدب المحلي والعربي.

خاتمة:

إن مستقبل الأدب المقارن في الجزائر يحمل في طياته تحديات وفرصاً واعدة في آن واحد. فمن جهة، لا تزال هناك عقبات منهجية، ولغوية، ومؤسسية تواجه هذا المجال. فعلى المستوى المنهجي، يعاني الأدب المقارن في الجزائر من نقص الدراسات الشاملة والعميقة التي تتجاوز التنظير إلى التطبيق المنهجي الفعلي. كما أن هناك إشكالية في تعدد المصطلحات واضطرابها، مما يخلق لبساً لدى الباحثين، ويصعب تحديد مواطن التأثير بدقة في الأعمال الأدبية. ويضاف إلى ذلك، التمسك بالمدرسة الفرنسية التقليدية التي تركز على مفهومي "التأثير والتأثر"، مما قد يحد من آفاق البحث ويغفل عن المناهج الحديثة الأكثر شمولاً كالمدرسة الأمريكية.

أما على المستوى اللغوي، فيواجه الباحثون صعوبة في الوصول إلى المراجع والمصادر المتخصصة والاستفادة منها بسبب ضعف الكفاءة في اللغات الأجنبية، خاصة الأوروبية، والنقص الملحوظ في المراجع المتخصصة باللغة العربية. وهذا يعيق فهم واستيعاب المصادر الأجنبية بشكل كامل.

وعلى الصعيد المؤسسي والأكاديمي، على الرغم من الاعتراف بالأدب المقارن في الجامعات الجزائرية، إلا أن وجود هذا التخصص لا يزال مقتصرًا على الدراسات العليا، مثل الدكتوراه، وبعض المقاييس في مرحلتها الليسانس والماستر. كما أن الباحثين يواجهون ضيق الوقت وكثرة المسؤوليات الأكاديمية والشخصية، مما يؤثر سلباً على جودة وعمق الأبحاث.

لكن من جهة أخرى، فإن هذه التحديات تمثل دعوات للتأمل والعمل الدؤوب. هناك حاجة ماسة إلى تجديد فضاء النقد والأدب المقارن في الجزائر، وذلك بتبني مناهج وأفكار جديدة تتجاوز الأطر التقليدية السائدة. يجب على الباحثين الجزائريين تجنب التقليد الأعمى للمناهج الغربية، والعمل على تطوير مقاربات بحثية أصيلة تتناسب مع خصوصية السياق الثقافي والأدبي الجزائري والعربي. ولتحقيق ذلك، يتطلب الأمر دعماً مؤسسياً وأكاديمياً أكبر، وتوفير المراجع المتخصصة، وتشجيع تعليم اللغات الأجنبية للباحثين، وتحفيزهم عليها. إن استثمار هذه الآفاق الواعدة يمكن أن يثري المشهد الأدبي في الجزائر ويعزز حضورها الثقافي على الساحة العالمية.

قائمة الإحالات:

- 1 - الطاهر أحمد مكي، الأدب المقارن: أصوله وتطوره ومناهجه، طبعة: دار المعارف، الطبعة الأولى، 1987، ص12.
- 2 - ينظر: أحمد درويش، والسعيد الباز، وأمان أبو الفتوح، مطبعة مقرر الأدب المقارن ونظرية الأدب، مركز جامعة القاهرة للتعليم المفتوح، 2021، ص7.
- 3 - ماريوس فرنسو جويار، الأدب المقارن، ترجمة: هنري زغب، طبعة: دار منشورات عويدات بيروت-باريس، الطبعة الثانية، 1988، ص11.
- *الكوزومبليتيانية: بأنها مجموعة من الناس أو العناصر من مختلف البلدان تتفق بسبب عابرة للحدود تتميز بها عن غيرها، وللمصطلح معاني مختلفة ومتداخلة بحسب المجال المستخدم به، وهو يعطي انطباعات إيجابية أو سلبية، المعنى الإيجابي، في الانتشار في مناطق عدة، والمعنى السلبي، في أنه ليس لها وطن واحد.
- 4 - المرجع السابق، ص12-13.
- 5 - أحمد درويش، والسعيد الباز، وأمان أبو الفتوح، مقرر الأدب المقارن ونظرية الأدب، مطبعة مركز جامعة القاهرة للتعليم المفتوح، 2021، ص7.
- 6 - أحمد درويش، والسعيد الباز، وأمان أبو الفتوح، مقرر الأدب المقارن ونظرية الأدب، ص.
- 7 - نصيرة كبير، الأدب المقارن وحركة الاستشراق في الأدب العربي: قراءة في منظور المقارنين العرب للاستشراق (أطروحة دكتوراه)، 2017، ص36.
- 8 - السابق، ص / 41-42.

- 9- عبد المجيد حنون، الأدب المقارن في الجزائر، دار بهاء الدين للنشر والتوزيع، دط، دت، ص 14.
- 10- المرجع نفسه، ص 15
- 11- عبد الرحمن بن محمد الجيلالي، محمد بن أبي شنب، حياته وآثاره، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983، ص 13-38.
- 12- عبد المجيد حنون، الأدب المقارن في الجزائر، دار بهاء الدين للنشر والتوزيع، دط، دت، ص 17.
- 13- 68./ 67/ cahier algeriens de literature compareé. N° 1/2/3. Alger. 1966
- 14- عبد المجيد حنون، الأدب المقارن في الجزائر، ص 18.
- 15- جيلالي بومدين، تاريخ الأدب المقارن في الجزائر، مجلة متون، ع3، سعيدة، 2010 ص 230.
- 16- عبد المجيد حنون، الأدب المقارن في الجزائر، ص 21.
- 17- 67-68./ cahier algeriens de literature compareé. N° 1/2/3. Alger. 1966
- 18- عبد المجيد حنون، أبو العيد دودو والأدب المقارن في الجزائر، مجلة اللغة العربية، ع11، المجلس الأعلى للغة العربية، الجزائر، 2004، ص 121.
- 19- ينظر: عبد المجيد حنون، أبو العيد دودو والأدب المقارن في الجزائر، ص 123-125.
- 2020 - ينظر: عبد المجيد حنون، الأدب المقارن في الجزائر، ص 46-47.
- 21 - عبد المجيد حنون، الأدب المقارن في الجزائر، ص 100.
- 22 - عبد المجيد حنون، العرب والأدب المقارن -دراسة-، ميم للنشر، ط1، 2018، ص 32.
- 23 -أييف شفريل، الأدب المقارن، تر: محمد محمود، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط1، 2013، ص 56.
- 24 - عبد المجيد حنون، الأدب المقارن في الجزائر، ص 100.
- 25 - عبد المجيد حنون، الأدب المقارن في الجزائر، ص 101.

الهوامش:

1. أحمد درويش، والسعيد الباز، وأمان أبو الفتوح، مطبعة مقرر الأدب المقارن ونظرية الأدب، مركز جامعة القاهرة للتعليم المفتوح، 2021.
2. أييف شفريل، الأدب المقارن، تر: محمد محمود، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط1، 2013.
3. جيلالي بومدين، تاريخ الأدب المقارن في الجزائر، مجلة متون، ع3، سعيدة، 2010.
4. الطاهر أحمد مكي، الأدب المقارن: أصوله وتطوره ومناهجه، طبعة: دار المعارف، الطبعة الأولى، 1987.
5. عبد الرحمن بن محمد الجيلالي، محمد بن أبي شنب، حياته وآثاره، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983.
6. عبد المجيد حنون، أبو العيد دودو والأدب المقارن في الجزائر، مجلة اللغة العربية، ع11، المجلس الأعلى للغة العربية، الجزائر، 2004.
7. عبد المجيد حنون، الأدب المقارن في الجزائر، دار بهاء الدين للنشر والتوزيع، دط، دت.
8. عبد المجيد حنون، العرب والأدب المقارن -دراسة-، ميم للنشر، ط1، 2018.
9. ماريوس فرنسو جويار، الأدب المقارن، ترجمة: هنري زغيب، طبعة: دار منشورات عويدات بيروت-باريس، الطبعة الثانية، 1988.
10. نصيرة كبير، الأدب المقارن وحركة الاستشراق في الأدب العربي: قراءة في منظور المقارنين العرب للاستشراق (أطروحة دكتوراه)، 2017.
11. . cahier algeriens de literature compareé. N° 1/2/3. Alger. 1966/ 67/68.